المحاضرة رقم (05) مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري

ظن المستعمر الفرنسي بعد سقوط مدينة الجزائر آنذاك، بأنه سيبسط قبضته على كل ربوع الوطن بسهولة مطلقة، و قد صرح دوبرمون أن أنحاء المملكة الجزائرية ستخضع لهم خلال خمسة عشر يوم، دون أية طلقة نارية، لكنه أخطأ في ذلك حيث انتفض الشعب الجزائري في نقاط مختلفة من الوطن شرقا و غربا و جنوبا و في الوسط ضد المستعمر الفرنسي و سياسته التي مارسها في كل جوانب الحياة، و التي حاول من خلالها جعل الشعب الجزائري شعبا خاضعا له، ممزقا إياه من عناصر هويته الأصلية، و من بين أهم أوجه رفض الاستعمار الفرنسي نجد مقاومة أحمد باي بالشرق الجزائري و الأمير عبد القادر بالغربي الجزائري و بوعمامة وظهرت مقاومات أخرى رافضة للاحتلال الفرنسي .

01. ترجمته وبيعته :هو عبد القادر بن محي الدين، ينتهي نسبه إلى الحسين بن فاطمة بنت رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام، ولد سنة 1808، بقرية القيطنة بمنطقة غريس بمعسكر، كان والده مرابط الزاوية القادرية بمعسكر، تعلم القراءة والكتابة في عمره 5 سنوات فتربى في بيئة دينية محافظة، تتلمذ على يد والده وشيوخ آخرين، وفي سن 12 تمكن من القرآن والحديث وأصول الشريعة ولم يبلغ سن 20 حتى كان قد أطلع أمهات الكتب العربية في الفلك،اللغة،وحتى الكتب الطبية فدرس الفلسفة وعلوم القرآن والتاريخ والجغرافية والنحو والأدب، والرياضيات خاصة الجبر، والقضاء والفقه المالكي، سافر في سنة 1825 مع والده لزيارة البقاع المقدسة، وكانت لهذه الرحلة الأثر في تكوين شخصيته ..

02. مقاومة الأمير عبد القادر بالغرب الجزائري (1830-1847)

تعتبر من أبرز المقاومات الشعبية حيث شارك الأمير عبد القادر في الهجومات التي شنها والده محي الدين على العدو الفرنسي المتواجد بمدينة وهران، و قد تمكن الشيخ محي الدين من مضايقة العدو، و في هذه الفترة برزت شخصية ابنه " عبد القادر"، حيث أظهر في المعارك التي شارك فيها مع والده شجاعة كبيرة.

03. بداية مقاومة الأمير عبد القادر: بدأ الأمير عبد القادر هجوماته العسكرية ضد الجيش الفرنسي ابتداء من يوم 4 فيفري 1833، و في حقيقة الأمر أن الأمير عبد القادر كان يحارب على جبهتين في آن واحد : فمن جهة كان يحارب فرنسا ، و من جهة كان يحارب القبائل المتمردة و يحاول أن يوحد الصفوف و يعيد الأمر إلى نصابه ، لأن الأمير كان يدرك أن نجاح مقاومته من فشلها متوقف على الولاء و الطاعة و احترام قرارات دولته ، خاصة و أن فرنسا كانت تراهن على فشل العرب في تنظيم أنفسهم و صفوفهم للنضال و المقاومة. و في هذا الصدد يقول **شارل هنري تشرشل " لقد آمن عبد القادر إيمانا عميقا بضرورة الاتحاد المطلق بين مواطنيه، لكي يحقق لهم استقلالهم المشترك، لقد قرر أن يقارع بسيفه الذين يشكون أو يحاولون أن يقاوموا سلطته".**

04.مراحل مقاومته : مرت مقاومة الأمير عبد القادر بثلاث مراجل نوجزها فيما يلي:

1.4. **مرحلة الانطلاق و القوة** (1832-1837): سميت هذه المرحلة بالانطلاق لأنها شهدت بداية مقاومة الأمير عبد القادر للاحتلال الفرنسي كأمير و قائد للجهاد، و بداية بناء اللبنة الأولى للدولة الجزائرية الحديثة هذا من جهة، و وصفت من جهة أخرى هذه المرحلة بالقوة لأن ميزان القوة كان لصالح قوات الأمير، حيث تفوق في أغلب المواجهات العسكرية بينه و بين العدو، و انتهت هذه المرحلة بإبرام معاهدة التافنة التي اعترفت فيها فرنسا بدولته، **و تميزت هذه المرحلة ب:**

- اتخاذ معسكر عاصمة له، اعترافا لدور سكانها في انطلاق الجهاد المنظم. تشكيل حكومة الأمير في فيفري 1833، و تعيين القضاة، و تنصيب الولاة في مختلف أنحاء الإمارة، كما شكل مجلسا للشورى من 11 عالما.
- عمل الأمير على توحيد القبائل حول مبدأ الجهاد و تحت سلطته، و انتزاع من الفرنسيين كثيرا من القبائل التي كانت قد تحالفت معهم، كما ألزمها بالتشبث بأرضها. و بالمقابل اعتبر المتعاونين معهم مرتدين عن الإسلام.
- مقاطعة المحتلين و محاصرة مراكزهم في وهران و مستغانم، و حملهم على الخروج من معاقلهم لقتال بالداخل.
- الاستيلاء على ميناء أرزيو و استخدامه في توريد السلاح و الاتصال بالعالم الخارجي و ذلك قبل أن تستولي عليه فرنسا.
- تنشيط مدن الداخل و السهول العليا كتلمسان و مليانة و المدية و قصر البخاري...و جعلها محاور اقتصادية و اجتماعية و عسكرية للدولة. توسع نفوذ الأمير ليشمل كل الغرب الجزائري ماعدا وهران و مستغانم و أرزيو ، كما

توغل في إقليم التيطري و استولى على مليانة في أفريل 1835 ، و على المدية في الشهر التالي ، و توسع شرقا فأحذ مدينة بسكرة.

- شرع في تكوين جيش نظامي وطني وفي :

2.4. معاهدة الجنرال ديمشال (24- 26 فيفري 1834): تمكن الأمير عبد القادر في المرحلة الأولى من مقاومته من مواجهة الجيش الفرنسي و إجباره على التمسك و الاكتفاء بالبقاء في مدن: مستعانم، أرزيو و وهران، و قد عمد الأمير إلى فرض حصار اقتصادي على هذه المدن الثلاثة. و في هذا الصدد يذكر بعض المؤرخين أن نظام الحصار الذي ضربه عبد القادر كان تأشير مهلك على القوات الفرنسية " حتى أصبحوا كالطيور الكاسرة يبحثون و يقعون على طعامهم في المناطق الداخلية". و في أواخر شهر أكتوبر 1833 قام رجل من قبيلة " البرجية " باختراق الحصار، و قصد أرزيو لتموين قوات الاحتلال، و عندما أتم صفقة البيع مع العدو طلب من الفرنسيين توفير حماية له للعودة إلى قبيلته ، خشية من جنود الأمير، فكان له ذلك حيث أرسلوا معه ضابط و أربعة جنود، و في طريقهم انقض عليهم 100 فارس جزائري ، فقتلوا جنديا و أسروا الباقين في معسكر. و نظرا لشدة وطأة الحصار الاقتصادي المفروض على الفرنسيين في كل من وهران و مستغانم و أرزيو راسل الجنرال ديمشال الأمير لكن هذه المرة ليعرض عليه صراحة إجراء مقابلة معه و عقد معاهدة سلم تحقن دماء " شعبين فرضت عليهما العناية الإلهية أن يتعايشا في ظل حكم واحد". و بتوالي انتصارات الأمير و جيشه الفتي اضطر الجنرال الفرنسي ديمشيل حاكم وهران إلى إبرام معاهدة هدنة مع الأمير عبد القادر بتاريخ 26 فيفري 1834 اعترف فيها بإمارته على كامل البلاد في مقابل إقراره لفرنسا بالسلطة على مدن وهران والجزائر و أرزيو و مستغانم، و قد اعتبر الأمير هذه الهدنة فرصة لتوطيد مركزه و توسيع نفوذه خارج إقليمه، و كذا حيازة اعتراف العدو به و بدولته. و يقول ديميشيل أن العوامل التي أدت به إلى مبادرته السلمية، أو من بينها، سياسة الحكومة الفرنسية العامة المتسمة بالتردد بين الاحتفاظ و الانسحاب من الجزائر قبل صدور القرار النهائي بشأنها في صيف 1834 .

و أهم ما نصت هذه المعاهدة من بنود نوجزها فيما يلي:

-إنهاء الحرب بين الفرنسيين و العرب، و يعمل كل من الأمير عبد القادر و الجنرال ديميشال جاهدين على إرساء المودة بين شعبين كتب لهما بالعيش تحت حكم واحد. -احترام الدين و العادات الإسلامية .-اعتراف ديميشيل بإمارة الأمير على كامل البلاد في المقابل إقراره لفرنسا على مدن: الجزائر، وهران، أرزيو و مستغانم. -تعيين وكلاء من الأمير عبد القادر بوهران و مستغانم و أرزيو كي لا تقع خصومة بين الفرنسيين و العرب، و بالمثل يقام وكيلا عن فرنسا ضابط فرنسي في معسكر.

-يلزم رد الأسرى من الفريقين. -إعطاء الحرية كاملة للتجارة. -تلتزم العرب بإرجاع كل من يفر إليهم من العسكر الفرنسي و يلتزم الفرنسيون بتسليم كل من يفر إليهم من أهل الجرائم الهاربين من القصاص إلى وكلاء الأمير في المدن الثلاث.

-كل أوروبي سيعطى له إذا رغب في السفر داخل البلاد جواز سفر موقعا عليه من ممثلي الأمير و مصادقا عليه من القائد العام، و بذلك يحصل على الحماية في جميع الأقاليم. اختار الجنرال دي ميشال أن يكون صك الهدنة واحدا تحرر فيه مطالب الأمير بالخط العربي ومطالب الجنرال بالخط الفرنساوي، وكل منهما يمضي للآخر على شروطه بخطه.

3.4. معاهدة التافنة (30 ماي 1837) : اضطرت فرنسا أن تعقد صلحا آخر مع الأمير عبد القادر، و كلفت هذه المرة الجنرال بيجو يوم 23 ماي 1836بالتفاوض معه، و قد أدت الاتصالات بين الطرفين إلى إبرام **معاهدة التافنة في 30 ماي 1837 و التي نصت على وجه الخصوص بمايلي:** -يعترف الأمير بسلطة دولة فرنسا على مدينة الجزائر و سهل متيجة، و على مدن وهران و مستغانم و أرزيو .-على دولة فرنسا أن تعترف بإمارة الأمير عبد القادر على إقليم وهران و إقليم التيطري، و القسم الذي لم يدخل في حكم فرنسا من إقليم مدينة الجزائر من الناحية الشرقية. و لا يحق للأمير أن يمد يده لغير ما ذكر من أرض الجزائر. -يمكن للأمير أن يشتري من فرنسا البارود و الكبريت و سائر ما يحتاجه من الأسلحة.

-على فرنسا أن تتخلى للأمير على مدينة تلمسان و قلعة المشور و رشغون مع المدافع القديمة التي كانت فيها قديما. و يتعهد الأمير بنقل الذخائر الحربية و الأمتعة العسكرية التي للعساكر الفرنسية في تلمسان إلى وهران. -تطبيق مبدأ التجارة الحرة بين الطرفين. و بناء على هذه الشروط تكون هذه المعاهدة اعترافا صريحا من حكومة فرنسا بإمارة الأمير التي أصبحت تشمل ثلاثة أرباع مقاطعة الجزائر زيادة عن ولاية وهران كلها، باستثناء المدن السالفة الذكر.